زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ
جَامِعُ الْقُرْآنِ

إذا حملتَ «المصحف» بيمينك، واستقبلتَه بوجهك، ومضيت تتأنَّق فى روضاته اليانعات، سورة سورة، وآية آية، فاعلم أن من بين الذين يدينونك بالشكر والعرفان على هذا الصنيع العظيم، رجل كبير اسمه: «زيد بن ثابت».. !!

وإن وقائع جمع القرآن فى مصحف، لا تذكر إلا ويذكر معها هذا الصحابى الجليل..

وحيث تُنثر زهور التكريم على ذكرى المباركين الذين يرجع إليهم فضل جمع القرآن وترتيبه وحفظه، فإن حظ «زيد ابن ثابت» من تلك الزهور، لَحَظٌّ عظيم..

* * *

هو أنصارىٌّ من المدينة..

وكانت سِنُّه يوم قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرًا، إحدى عشرة سنة، وأسلم الصبى الصغير مع المسلمين من أهله، وبُورِك بدعوة من الرسول له..

وصحبه آباؤه معهم إلى غزوة بدر، لكن الرسول رَدَّه لِصغر سِنّه وجسمه..

وفى غزوة «أُحُد» ذهب مع جماعة من أترابه إلى الرسول يحملون إليه ضَراعتهم كى يقبلهم فى أى مكان من صفوف المجاهدين..

وكان أهلوهم أكثر منهم ضراعة وإلحاحًا ورجاء..

ألقى الرسول على الفرسان الصغار نظرة شاكرة، وبدا كأنه سيعتذر عن تجنيدهم فى هذه الغزوة أيضًا..

لكن أحدهم وهو - رافع بن خديج - تقدم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحمل حربة، ويحركها بيمينه حركات بارعة، وقال للرسول عليه السلام:

«إنى كما ترى رامٍ، أُجيدُ الرَّمى فأذَن لى»..

وحيا الرسول هذه البطولة الناشئة، الناضرة، بابتسامة راضية، ثم أذن له..

وانتفضت عروق أتْرابه..

وتقدم ثانيهم، وهو «سَمُرة بن جُندب»، وراح يُلَوِّح فى أدب بذراعيه المفتولتين، وقال بعض أهله للرسول:

«إن سَمُرة يصرعُ رافعًا»..

وحَيَّاه الرسول بابتسامته الحانية، وأذن له..

كانت سنُّ كل من رافع وسَمُرة، قد بلغت الخامسة عشرة، إلى جانب نموهما الجسمانى القوى..

وبقى من الأتراب ستة أشبال، منهم زيد بن ثابت، وعبد الله ابن عمر..

ولقد راحوا يبذلون جهدهم وضراعتهم بالرجاء تارة، وبالدمع تارة، وباستعراض عضلاتهم تارة..

لكن أعمارهم كانت باكرة، وأجسامهم غضة، فوعدهم الرسول بالغزوة المقبلة..

وهكذا بدأ زيد مع إخوانه دوره كمقاتل فى سبيل الله بدءًا من

غزوة الخندق، سنة خمس من الهجرة..

كانت شخصيته المسلمة المؤمنة تنمو نموًّا سريعًا وباهرًا، فهو لم يبرع كمجاهد فحسب، بل كمثقف متنوع المزايا أيضًا، فهو يُتابع القرآن حفظًا، ويكتب الوحى لرسوله، ويتفوق فى العلم والحكمة، وحين يبدأ الرسول فى إبلاغ دعوته للعالم الخارجى كله، وإرسال كتبه لملوك الأرض وقياصرتها، يأمر زيدًا أن يتعلم بعض لغاتهم فيتعلمها فى وقت وجيز..

وهكذا تألَّقت شخصية «زيد بن ثابت» وتبوأ فى المجتمع الجديد مكانًا عَلِيًّا، وصار موضع احترام المسلمين وتوقيرهم..

يقول «الشَّعبى»:

«ذهب زيد بن ثابت ليركب، فأمسك ابن عباس بالرِّكاب. فقال له زيد: تنحَّ يا بن عم رسول الله.. فأجابه ابن عباس: لا، فهكذا نصنع بعلمائنا»..

ويقول «قَبيصَة»:

«كان زيد رأسًا بالمدينة فى القضاء، والفتوى، والقراءة والفرائض»...

ويقول «ثابت بن عبيد»:

«ما رأيتُ رجلا أفْكَهَ فى بيته، ولا أوقرَ فى مجلسه من زيد»..

ويقول «ابن عباس»:

«لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أن زيد ابن ثابت كان من الراسخين فى العلم»..

إن هذا النُّعوت التى يرددها عنه أصحابه لَتزيدنا معرفة بالرجل الذى تدَّخر له المقادير شرَف مهمة من أنبل المهام فى تاريخ الإسلام كله.. مُهمّة جمع القرآن.

* * *

منذ بدأ الوحى يأْخُذ طريقه إلى قلب الرسول ليكون من المنذرين، مُستهلًّا موكب القرآن والدعوة بهذه الآيات الرائعة..

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلَق، خلَق الإنسان من عَلَق، اقرأ وربُّكَ الأكْرَم، الذى علَّم بالقَلَم، علّم الإنسان ما لم يَعلَم﴾...

منذ تلك البداية، والوحىُ يُصاحب الرسول عليه الصلاة والسلام، ويَخفُّ إليه كلما ولَّى وجهه شَطر الله راجيًا نوره وهُدَاه.

وخلال سنوات الرسالة كلها، حيث يفرغ النبى من غزوة ليبدأ أخرى.. وحيث يُحْبط مكيدة وحربًا، ليواجه خصومه بأخرى، وأخرى. وحيث يبنى عالمًا جديدًا بكل ما تحمله الجدَّة من معنى..

كان الوحى يتنزّل والرسول يتلو، ويُبلغ، وكان هُناك ثُلة مباركة تحرك حِرْصها على القرآن من أول يوم، فراح بعضهم يحفظ منه ما استطاع، وراح البعض الآخر ممن يجيدون الكتابة، يحتفظون بالآيات مسطورة.

وخلال إحدى وعشرين سنة تقريبًا، نزل القرآن خلالها آية آية، أو آيات، تِلوَ آيات، مُلَبيا مناسبات النزول وأسبابها، كان أولئك الحَفَظة، والمسَجلون، يوالون عملهم فى توفيق من الله كبير..

ولم يجئ القرآن مرة واحدة وجملة واحدة، لأنه ليس كتابًا مؤلفًا، ولا موضوعًا.

إنما هو دليل «أُمة جديدة» تُبنى على الطبيعة، لَبِنةً لَبنة، ويومًا يومًا، تنهض عقيدتها، ويتشكل قلبها، وفِكرها، وإرادتها وَفْق مشيئة إلهية، لا تفرض نفسها من عَلٍ، وإنما تقود التجربَةَ البشرية لهذه الأمة فى طريق الاقتناع الكامل بهذه المشيئة..

ومن ثمَّ، كان لابد للقرآن أن يجيء مُنجَّمًا، ومُجَزَّأً، ليتابع التجربة فى سيرها النامى، ومواقفها المتجددة. وأزماتها المتصَدِّية[1].

توافَر الحُفَّاظ، والكتبة، - كما ذكرنا من قبل - على حفظ القرآن وتسجيله، وكان على رأسهم على بن أبى طالب، وأبىّ ابن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وصاحب الشخصية الجليلة التى نتحدث عنها الآن: «زيد بن ثابت» رضى الله عنهم أجمعين..

* * *

وبعد أن تم نزولا، وخلال الفترة الأخيرة من فترات تنزُّله، كان الرسول يقرؤه على المسلمين.. مُرَتبًا سوره وآياته.

وبعد وفاته - عليه الصلاة والسلام - شُغِل المسلمون من فَوْرِهم بحروب الرِّدَّة..

وفى معركة اليمامة.. التى تحدثنا عنها من قبل خلال حديثنا عن «خالد بن الوليد» وعن «زيد بن الخطاب» كان عدد الشهداء من قراء القرآن وحفظته كبيرًا ومُثيرًا.. فما كادت نار

---

(١) راجع كتابنا - كما تحدث القرآن.

الرِّدة تخبو وتنطفئ حتى فزع عمر إلى الخليفة «أبى بكر الصديق» رضى الله عنه راغبًا إليه فى إلحاح أن يُسَارعوا إلى «جمع القرآن» قبلما يدرك الموت والشهادة بقية القراء والْحُفَّاظ.

واستخار الخليفة ربَّه.. وشاور صحبه.. ثم دعا «زيد ابن ثابت» وقال له:

«إنك شاب عاقل لا نتهمك»..

وأمره أن يبدأ بجمع القرآن الكريم، مستعينًا بذوى الخبرة فى هذا الموضوع..

ونهض زيد بالعمل الذى توقف عليه مصير الإسلام كله كدين..!

وأبلى بلاءً عظيمًا فى إنجاز أشق المهام وأعظمها، فمضى يجمع الآيات والسور من صدور الحفاظ، ومن مواطنها المكتوبة، ويُقابل، ويُعَارض، ويتحَرَّى، حتى جمع القرآن مُرتبًا ومنسقًا...

ولقد زكَّى عمله إجماع الصحابة رضى الله عنهم الذين عاشوا يسمعونه من رسولهم صلى الله عليه وسلم خلال سنوات الرسالة جميعها، لا سيَّما العلماء منهم والحفاظ والكتبة..

وقال زيد وهو يُصوِّرُ الصعوبة الكبرى التى شكلتها قداسةُ المهمة وجلالها...

«والله، لو كلفونى نَقْلَ جَبَل من مكانه، لكان أهونَ عَلَىَّ مما أمرونى به من جمع القرآن».. !!

أجَلْ...

فَلأن يحمل زيد فوق كاهله جبلاً، أو جبالاً، أرضى لنفسه من أن يخطئ أدنى خطأ، فى نقل آية أو إتمام سورة..

كل هول يصمد له ضميره، ودينه.. إلا خطأً كهذا مهما يكن ضعيفًا وغير مقصود...

ولكن توفيق الله كان معه، وكان معه كذلك وعده القائل:

﴿إنَّا نحن نَزَّلْنا الذكْر، وإنا له لحافظون﴾..

فنجح فى مهمته، وأنجز على خير وجه مسئوليته وواجبه.

* * *

كانت هذه هى المرحلة الأولى فى جمع القرآن...

بيدَ أنه جُمِع هذه المرة مكتوبًا فى أكثر من مصحف...

وعلى الرغم من أن مظاهر التفاوُت والخلاف بين هذه

المصاحف كانت شكلية، فإن التجربة أكَّدت لأصحاب الرسول عليه السلام وجوب توحيدها جميعًا فى مصحف واحد.

ففى خلافة «عثمان» رضى الله عنه، والمسلمون يواصلون فتوحاتهم وزحوفهم، مبتعدين عن المدينة، مغتربين عنها..

فى تلك الأيام، والإسلامُ يستقبل كل يوم أفواجًا تِلْوَ أفواج من الداخلين فيه، المبايعين إيَّاه، ظهر جَلِيًّا ما يمكن أن يُفضى إليه تعدُّد المصاحف من خطر حين بدأت الألسنة تختلف على القرآن حتى بين الصحابة الأقدمين والأولين...

هنالك تقدم إلى الخليفة «عثمان» فريقٌ من الأصحاب رضى الله عنهم على رأسهم «حذيفة بن اليمان» مفسرين الضرورة التى تحتم توحيد المصحف...

واستخار الخليفة ربه وشاوَرَ صحبه..

وكما استنجد «أبو بكر الصدِّيق» من قبل بزيد بن ثابت، استنجد به عثمان أيضًا...

فجمع «زيد» أصحابه وأعوانه، وجاءوا بالمصاحف من بيت حفصة بنت عمر رضى الله عنهما، وكانت محفوظة لَدَيها، وباشر «زيد» وصحبه مهمتهم العظيمة الجليلة.

كان كل الذين يعاونون «زيدًا» من كُتَّاب الوَحْى، ومن حفظة القرآن...

ومع هذا، فما كانوا يختلفون - وقلّما كانوا يختلفون - إلا جعلوا رأى زيد وكلمته هى الحجَّة والفَيْصل.

* * *

والآن ونحن نقرأ القرآن العظيم مُيَسَّرًا.. أو نسمعه مُرَتلا.. فإن الصعوبات الهائلة التى عاناها الذين اصطنعهم الله لجمعه وحفظه لا تخطر لنا على بال..!!

تمامًا، مثل الأهوال التى كابدوها، والأرواح التى بذلوها، وهم يجاهدون فى سبيل الله، ليُقرُّوا فوق الأرض دينًا قِيَمًا، وليبدِّدُوا ظلامها بنوره المبين..